ISSN: 3079-062X
مجلة علمية محكّمة نصف سنوية تصدر عن الجمعية الليبية للعلوم التربوية والإنسانية
https://alasala.alandalus-libya.org.ly/ojs/index.php/aj/index

معركة الزلّاقة ونفوذ المرابطين بالأندلس

أ. زينب مفتاح التواتـــــي*
كلية التربية الزنتان ، جامعة الزنتان، ليبيا
Zinabzinab767877@gmail.com

تاريخ الاستلام 2026 / 3/18م تاريخ القبول 19 / 5 / 2026م

The Battle of Al-Zallaqa and the Almoravid Influence in Al-Andalus

*A. Zainab Muftah Al-Tawati
Faculty of Education, University of Zintan, Libya
Zinabzinab767877@gmail.com

Abstract

This research examines the Battle of Zallaqa, a pivotal event in the political and cultural history of the western Mediterranean basin in general, and the history of Morocco and Andalusia in particular. It sheds light on the situation in Andalusia during the Taifa period and demonstrates its role in attracting two rising powers: the power of Castile in northern Andalusia, which mobilized the Crusader forces, and the power of the Almoravids deep in the Moroccan Sahara, which mobilized the Muslim forces. The Battle of Zallaqa thus became the decisive historical event for control of the Strait of Gibraltar and dominance over the western Mediterranean basin.

The research analyzes the distant and immediate factors in the history of Andalusia and the geography of Morocco, highlighting their role in preparing for the battle. It also studies the personalities of the two leaders, Alfonso VI and Yusuf ibn Tashfin, demonstrating their influence on the army's structure and battle preparations. Furthermore, it expands on the analysis of the situation in Andalusia during the Taifa period to conclude that it accelerated the rivalry between the two powers vying for control of its resources. The research concludes by describing the battle, its course and results, and by studying its consequences in Andalusia, to show how the

حقوق النشر © للمؤلف/للمؤلفين 2025. ينشر هذا البحث بموجب رخصة المشاع الإبداعي Creative Commons (CC BY-NC

Almoravids used the victory to preserve Andalusia and annex it to the Islamic Empire, without being keen to exceed its borders in expansion at the expense of the defeated Christians.
Keywords: Al-Zalaka, Al-Murabitun, Al-Andalus

الملخـــــــــص:

يتناول هذا البحث "معركة الزلاقة" حدثاً مفصلياً في التاريخ السياسي والثقافي للمجال الغربي من حوض البحر الأبيض المتوسط عامة، وتاريخ المغرب الأقصى والأندلس خاصة، إذ يسلط الضوء على وضعية بلاد الأندلس زمن ملوك الطوائف، ويبين دورها في استجلاب القوتين الصاعدتين: قوة قشتالة شمال الأندلس ببلاد النصارى، حيث حشدت قوى الصليبيين، وقوة المرابطين في عمق صحراء المغرب، حيث حشدت قوى المسلمين، لتكون معركة الزلاقة الحدث التاريخي الحاسم للسيطرة على مجاز جبل طارق والتحكم في المجال الغربي من حوض المتوسط.

ويتناول البحث بالتحليل العوامل البعيدة والقريبة في تاريخ بلاد الأندلس وجغرافيا بلاد المغرب، مبرزا دورها في الإعداد للمعركة، كما يدرس شخصيات القائدين ألفونسو ويوسف بن تاشفين، مبيناً تأثير شخصيتهما في بنية الجيش والإعداد للمعركة، ويتوسع في تحليل وضعية الأندلس زمن حكم الطوائف ليستخلص منها تسريعاً لتنافس أطماع القوتين في السيطرة على خيراتها.

وينتهي البحث بوصف المعركة في مجرياتها ونتائجها، إلى دراسة نتائجها في بلاد الأندلس، ليتبين كيفية استثمار المرابطين للانتصار في حفظ الأندلس وضمها إلى الإمبراطورية الإسلامية، دونما حرص على تجاوز حدودها توسعاً على حساب النصارى المهزومين.

الكلمات المفتاحية : الزلاقة ، المرابطون ، الأندلس

المقدمـــة:

تندرج مجمل المواجهات الحاصلة بشمال إفريقيا وبلاد الأندلس ضمن صراع الأمم للهيمنة على غرب المتوسط منذ ازدهار الحركة التجارية بعرض هذا البحر خلال العصر الفينيقي، وإذا ما قامت لذلك قديما الحروب البونية والحروب القرطاجنية الرومانية في الجرز كصقلية واليابسة بين روما وقرطاج ،فإن حركتي الاسترداد المسيحي والفتح الإسلامي قد اختارتا السهل من بلاد الأندلس لاختبار القدرة على التحكم في مضيق جبل طارق من جانبيه لتوجيه التجارة في العصر الوسيط، ومن

أجل ذلك كانت معركة الزلاقة وقد برز فيها المرابطون قوة ممثلة للإسلام ويوسف بن تاشفين قائداً عسكرياً محنكاً.

دفعتنا غلى دراسة معركة الزلاقة ودورها في تعزيز نفوذ المرابطين ثلاثة أسبابا أولها ارتباط نتائج هذه كانت لمعركة الزلاقة تضعها ضمن إطار الصراع الحضاري بين الشرق والغرب وتعتبر امتدادا للصراعات القديمة على منافذ البحر الأبيض المتوسط، وعلى مسالك التجارة الدولية عبره، وإنما تؤشر معركة الزلاقة إلى لحظة مفصلية انتقل فيها الصراع إلى حملات استرداد نصرانية اعيد تعديل مسارها بسبب نتائج هذه المعركة، ولم ينفتح مجال اختراق بلادهم رغم مكاسب النصر المرابطي.

وقد حددنا الإشكالية في مدى قدرة المرابطين على استثمار نتائج الانتصار في معركة الزلاقة لتأمين نفوذ موسع يمتد من بلاد السودان لأغلب بلاد الأندلس، ولبحث ذلك وضعنا ثلاثة فصول خص بالدراسة الأوضاع المهيئة لخوض المعركة بالأندلس بين قوتين صاعدتين في بلاد المغرب وبلاد اسبانيا وممالك النصارى، وفصل اهتم بتوصيف المعركة في مجمل مراحلها ونتائجها وفصل ثالث درس النفود المرابطي بالأندلس بين الاستقرار والتوتر ليتم القضاء على دولتهم بقدوم الموحدين، وقد فصلنا كل فصل ثلاثة مباحث تجريه.

وحيث تمحورت إشكاليّة هذا البحث حول مدى قدرة الدولة المرابطية على توظيف النتائج الحاسمة لمعركة الزلاقة في ترسيخ نفوذ سياسي وعسكري واسع، امتد من بلاد السودان إلى معظم حواضر الأندلس بما أتاح لها الانتقال من مجرد قوة جهادية مساندة إلى كيان سياسي ذي حضور مؤثر في معادلة الغرب الإسلامي، وانطلاقاً من هذه الإشكالية، جاء بناء الدراسة في ثلاثة فصول مترابطة، سعت إلى الإحاطة بمختلف الأبعاد التاريخية والسياسية والعسكرية للموضوع، فقد خصص الفصل الأول لدراسة الأوضاع والظروف التي مهدت لخوض معركة الزلاقة من خلال تحليل واقع الأندلس قبيل المعركة، والكشف عن طبيعة التوازنات القائمة بين القوى الصاعدة في بلاد المغرب الإسلامي وممالك النصارى في شبه الجزيرة الإيبيرية، وأما الفصل الثاني فقد يهتم بتتبع أحداث المعركة في مختلف مراحلها مع الوقوف عند خططها العسكرية، ومساراتها الميدانية ونتائجها السياسية والحضارية، ويتحدث الفصل الثالث عن مظاهر النفوذ المرابطي في الأندلس بين عوامل الاستقرار ومظاهر التوتر، محللاً التحديات الداخلية والخارجية التي واجهت الدولة المرابطية، وقد قسمنا كل فصل إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول ـ أوضاع الأندلس قبل معركة الزلاقــة:

أولاً ـ خلافة منهارة بين قوتين صاعدتين:

إن مرحلـة حكـم ملـوك الطوائـف والتـي هـي المرحلـة الثانيـة مـن تـاريخ الأنـدلس الإسلامية، تمثل مرحلة ضعف وانهزام، قد خصه الباحث المغربي عبدالله عنان بمجلد مستقل ضمن كتابه دولة الإسلام في الأندلس، واصـفًا إيـاه بأنـه العصـر الـذي "يشـغل زهاء سبعين أو ثمانين عامًا من تاريخ إسبانيا المسلمة منذ انهيار خلافة الأمويين علـى إثر انهيار دولة ابن عامر (399هـ/1009م)...، وهـذا البحـر الخضـم مـن المنافسـات والمنازعات والحروب الأهلية الانتحارية هو قوام عصـر الطوائـف"(1)، وقـد شـهدت الأندلس خلال هذه المرحلة حالة من التفكك السياسي والصراع الداخلي، حتـى "حـدث فيه من تغلب الثوار ما أضاع ثغورهم وأذهب أكثر بلادهم فلم يبق إلا الأقل"(2) ، وهو ما جعل عبد الله عنان يعده "ضربة لم تنهض الأندلس مـن آثارهـا قـط، بـل كـان بدايـة الانحلال الطويل الذي لبثت تتقلب فيه بعد ذلك زهاء أربعة قرون"(3).

وقد انعكسـت هـذه الفوضـى علـى مختلـف مظـاهر الحيـاة العسـكرية والحيـاة السياسية، فغدت البلاد مسرحاً للاضـطراب والانقسـام، ويصـور المؤرخـون ذلـك بمـا وقع من أعمال السلب والاقتتال، إذ إن سليمان بن الحكـم الملقـب بالمسـتعين بـالله، "لـم يزل يجول بعساكر البربر معه في بلاد الأندلس يفسـد وينهـب ويقفـر المـدائن والقـرى بالسيف والغارة"(4) ، ويعـد عصـر الطوائـف مـن أغـزر عصـور الأنـدلس مـن حيـث المادة التاريخية والتوثيق، فقد حفظت لنا مؤلفات المعاصرين صورة واسـعة عـن تلـك المرحلة، وفي مقدمتها كتابات ابن حيـان إلـى جانـب مـا نقلـه ابـن بسـام وابـن عـذاري وغيرهما، فضلًا عن إشارات ابن حزم وتحليلاته لأوضاع العصر وتحولاته(5) ، ومن خلال هذه المصادر يمكن الوقوف على ملامح التحول الجيوسياسي الذي قـاد الأنـدلس إلى معركة الزلاقة، فقد أصبحت البلاد مجالاً لصراع قـوتين تتنافسـان علـى السـيطرة على مضيق جبل طارق، في الوقت الذي تتوسع فيه مملكـة قشـتالة فـي الشـمال، وفـي حين كان المرابطون يتقدمون من بلاد المغرب الأقصى، الأمـر الـذي جعـل المواجهـة بين الطرفين أمراً لا مفر منه، لتنتهي الأوضاع بحدوث معركة الزلاقة التي تمثلت في نقطة تحول حاسمة فـي تـاريخ الأنـدلس، وأسـهمت فـي إنهـاء مرحلـة الطوائـف وفـتح المجال أمام النفوذ المرابطي.

ولا تبدو ظاهرة دول الطوائف نتيجة مباشرة لتفكك الخلافة وحده، بل ترتبط –أيضاً- بتحولات أعمق شهدها البناء السياسي والاجتماعي في بلاد المغـرب والأنـدلس، حيـث برزت العصبيات المحلية والقوى الإقليمية على حساب السـلطة المركزيـة، وقـد أشـار

ابن خلدون إلى هذا المعنى في حديثه عن تقلب أحوال الدول وانتقالها إلى "الضخامة والاستيلاء، ثم إلى الضعف والاضمحلال"(6) ، وفي ظل هذه التحولات ظهرت مراكز سياسية جديدة ومدن متنافسة، قبل أن تستعيد المنطقة شيئاً من وحدتها مع قيام دولتي المرابطين والموحدين، اللتين أعادتا تشكيل التوازن السياسي في الغرب الإسلامي، ومع هذه التحولات مختلف في أقاليم المغرب الإسلامي، فبدأت العواصم الكبرى مثل (القيروان- قرطبة- المهدية) تفقد مركزيتها في مقابل صعود مدن وإمارات جديدة(قابس- قفصة- بجاية- أشبيلية- غرناطة)، ومع نهاية القرن الخامس الهجري، بدأت مرحلة سياسية جديدة مع ظهور المرابطين ثم الموحدين، فاستعادت بعض الحواضر الكبرى مكانتها السياسية والحضارية، مثل(مراكش- تونس- طرابلس)، وبهذا يمكن القول إن ذلك القرن كان مرحلة تحول كبرى في تاريخ المغرب والأندلس، وكانت معركة الزلاقة أبرز الأحداث التي عبرت عن تلك التحولات وحسمت كثيراً من مساراتها التاريخية بما شهده من تغيرات كبرى انتهت بظهور قوى جديدة كان لمعركة الزلاقة دور أساسي في تمهيد الطريق لها.

لقد تهيأت لهذه المعركة ككل حدث تاريخي مفصلي، أسباب موضوعية عميقة في الجغرافيا السياسية والدينية والثقافية للحوض الغربي من المتوسط بين العدوتين، ويمكن توزيعها بين الأسباب الأندلسية المحلية المتطورة في خضم صراعات المدن والأحواز، وبين العوامل الإقليمية الناشئة والمتسارعة عاصفة زاحفة في شمال حوض المتوسط وجنوبه، والتي من قدرها التاريخي أن تتصادم في ساحة جغرافية محددة هي سهل الزلاقة.

ترتبط الأسباب المحلية الأندلسية لهذه المعركة بانهيار الدولة العامرية وما خلفه ذلك الانهيار من مظاهر تفكك البلاد الأندلسية إذ "لما وقع الانفجار وانهارت دعائم الطغيان العامري، ظهرت في ميدان النضال ثلاث قوى: بنو أمية يلتفون حول علم خلافتهم وتراث بيتهم المغصوب، وطوائف البربر تحاول الاحتفاظ برئاستها وامتيازاتها، والأسر العربية التي اضطهدت وأبعدت عن الميدان تحاول استرداد مكانتها وزعامتها القديمة"(7) ، ويصف ابن الخطيب صورة الأندلس بداية عهد الطوائف بالقول "ذهب أهل الأندلس من الانشقاق والانشعاب والافتراق إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار مع امتيازها بالمحل القرب والخطة المجاورة لعباد الصليب"(8)، وبذلك" فإن أهلها قد تفرقوا فرقا وتغلب في كل جهة منها متغلب منهم ما تغلب عليه وتقسموا ألقاب الخلافة، ذاك أنه رغم تجربة الحكم الجمهوري الجماعي لابي حزم بن جوهر عندما اجتمع رأي أهل قرطبة سنة(422هـ/1030م)، على إلغاء

الخلافة فتخلصوا نهائياً من بني أمية وأجلوهم جميعا عن المدينـة، فـإن ذلـك لـم يوقـف نسـارع التشـتت، فقـد "انهـزم البربـر عـن القاسـم وخرجـوا مـن الأربـاض كلهـا في(414هـ)، ولحقت كلّ طائفة ببلد غلبت عليه"(9).

وبرز أبو الحزم بن جهور الوزير لقرطبة، غير أن دولته سرعان مـا انهـارت بعد نحو أربعين عاماً، لتبتلعها دولة بني عباد في إشبيلية بوصفها أولـى دول الطوائـف الكبرى سقوطاً، واتجـه بنـو عبـاد، خصوصـاً المعتضـد بـن عبـاد إلـى سياسـة التوسـع وإخضاع إمارات الغرب بدل مشروع التوحيد، فاشتد الصراع وتفاقمت سياسة التفكيك بين الكيانات الأندلسية، وقد أسهمت هذه الحـروب البينيـة المسـتمرة فـي إنهـاك ممالـك الطوائف وإضعافها، ممهدة بذلك لتقدم الممالـك النصـرانية فـي الشـمال"(10) ، وهكـذا ضعفت سرقسطة كثيرا وحاصرها ملـك قشـتالة، وانتهـت بينهمـا المفاوضـة إلـى عقـد الهدنة، وعلى أن يدفع ابن الافطس لملك قشتالة جزية سنوية قدرها خمسة آلاف دينـار كما تذكر كتب المؤرخين، وبهـذه المصـالحة بـدأ تسـرب سـلطان النصـارى إلـى بـلاد المسلمين وشرع القشتاليون في التهام الثغور.

تشرذمت بـذلك الحالـة الأندلسـية وتقطعـت أوصـال وطـن جـامع ففـي قرطبـة يتحكم جهال الأمة، ومنهم محمد ابن عبد الرحمان الملقب بالمستكفي بالله الذي "كانـت ولايته ستة أشهر وأياما وكان في غاية السخف وركاكة العقل وسـوء التـدبير وزر لـه رجل حائـك يعـرف بأحمـد بـن خالـد وهـو كـان المـدبر لأمـره والمـدير لدولتـه"(11) ، تنوعت الإمارات البربرية في الأندلس بعد تفكك السلطة العامرية، فانتشرت فـي مالقـة والجزيرة وقرمونة وغرناطة تحت حكـم بنـي بـاديس، وتفرعـت عنهـا كيانـات محليـة متعددة، وبرزت منها إمارات أربع رئيسة، شكلت مراكز نفوذ متباينة، منها بني يفـرن في رندة وبنـو دمـر فـي مـورور وبنـو خـزرون فـي شـذونة أركـش وبنـو بـرزال فـي قرمونة، وفي بداياتهم لجأ بنو عباد إلى اسـتمالة هـذه القـوى البربريـة والتحـالف معهـا توظيفاً لموازين القوة في صراعهم على النفوذ في الأندلس"(12)، قبل أن يسلكوا مسلك زعزتها وقضمها تدريجيا لتمسي من أعمال أشبيلية، وهو مـا جعـل هـذه الدولـة تعتمـد الغدر والظلم والبطش في مد سلطانها دونما سعي إلى اسـتعادة وحـدة الانـدلس وشـاهد ذاك" أن نوازل ابن الحاج التجيبـي تمـدنا بأخبـار طغيـان الحكـام واسـتبدادهم بـالحكم، فتكشف لنا مظاهر الظلم والتسلط لبعض أمراء بني عباد، ويصف زوال دولـتهم بقولـه "انقراض الدولة السالفة"، والتي يصفها في مواضع أخرى بـ"دولة الظلم"(13) ، حيـث شهدت الأندلس خـلال النصـف الأول مـن القـرن الخـامس الهجـري حالـة مـن التفكـك السياسي نتيجة اضطراب الإمارات وتنافس الحكام على النفوذ، وتركـز الصـراع فـي

غرب الأندلس بين طليطلة وسرقسطة، بينما خضعت مناطق الجنوب والشرق لسيطرة قوى محلية متنازعة، وقد استغل النصارى هذا الضعف الداخلي فتوسعوا على حساب الممالك الأندلسية وتجاوزوا خطوط الدفاع القائمة، وأدى استمرار النزاعات الداخلية إلى استنزاف الموارد المالية والعسكرية، مما قرب الأندلس من خطر السقوط والانهيار(14).

ثانياً ــ وحدة النصارى ببلاد الفرنج ــ مملكة قشتالة وتوسعها بقيادة ألفونسو السادس ــ

شهدت الأندلس بين سنتي(444هـ و478هـ)، مرحلة اضطراب سياسي حاد، انتهت بسقوط طليطلة، وهي إحدى أهم حواضر الإسلام في الأندلس بيد القشتاليين(15) ، وقد انتهج ألفونسو السادس سياسة توسعية اعتمدت على استنزاف ملوك الطوائف بالجزية والغارات، مستفيداً من الانقسام الداخلي وتحالف بعضهم معه، وجاء سقوط طليطلة سنة(478هـ/1085م)، نتيجة ضعف بني ذي النون واستغلال القشتاليين للفراغ السياسي، فدخلها ألفونسو معلناً تحولاً خطيراً في ميزان القوى، وعقب هذا الحدث المفصلي، أدرك المعتمد بن عباد خطورة التمدد القشتالي، فبادر إلى الاستنجاد بالمرابطين من المغرب لمواجهة هذا التهديد المتصاعد(16).

ثالثاً ــ بلاد المغرب وتوسّع دولة المرابطين: ملوك الطوائف واستنجادهم بالمرابطين:

شهدت الأندلس في القرن الخامس الهجري، ولا سيما بعد تفكك دول الطوائف (منتصف القرن 5هـ)، حالة ضعف سياسي وعسكري عميق، فتعرضت ثغورها للاحتلال وتزايدت الأطماع القشتالية، وتعاظمت الأزمة بعد سقوط طليطلة سنة(478هـ/1085م)، الذي شكل نقطة تحول كبرى في ميزان القوى لصالح الممالك النصرانية، وفي المقابل برزت دولة المرابطين التي بدأت توسعها سنة(444هـ/1052م)، وتألق نجمها مع يوسف بن تاشفين سنة(448هـ/1056م)، ثم تأسيس مراكش سنة(454هـ/1062م)، كعاصمة كبرى، وجاء التدخل الحاسم سنة(479هـ/1086م)، عبر عبور ابن تاشفين إلى الأندلس وانتصاره في معركة الزلاقة، إيذاناً بمرحلة إعادة التوازن في الغرب الإسلامي"(17) ، لتكون الزلاقة المعركة الفاتحة لمرحلة الحروب الصليبية المطولة خلال العصور الوسطى، ونقطة انزلاق ضفتي البحر المتوسط إلى تلك الحروب والصراعات الدينية المستمرة للسيطرة خطوط الملاحة فيه(18)

المبحث الثانـــي ـ معركة الزلاقة:

أولاً ـ الإعداد للمعركة ـ تكوين الجيوش الإسلامية بقيادة يوسف ابن تاشفين- :

منذ توليه قيادة الجهاد سنة(448هـ/1056م)، أسس يوسف بن تاشفين جيشاً عقائدياً منظماً جمع قبائل المغرب تحت راية الانضباط والولاء الديني، حتى تجاوز عدده مائة ألف فارس، وفي سنة(454هـ/1062م)، رسخ هذا البناء بفتح فاس، مؤكداً قيام قوة عسكرية جديدة تتجاوز العصبيات نحو مشروع توحيدي طويل النفس، وحين دخل الأندلس سنة (479هـ/1086م)، أعاد تنظيم الجيش، فوحد المرابطين وجيوش الطوائف والمتطوعين في كيانٍ قتالي واحد استعداداً لحسم الصراع، وقد كان هدفه أبعد من نصرة إمارة، إذ اتجه نحو مشروع توحيدي يستهدف إعادة بناء الكيان الإسلامي في الأندلس، على خلاف رؤية أمراء الطوائف المحدودة، فجاءت الزلاقة تجسيداً لهذه الاستراتيجية الكبرى، في وقتٍ وصف فيه أمراء الأندلس بالضعف والتخاذل أمام التحديات المتصاعدة ردد ابن شرف القيرواني لهم بقوله (19):

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

وجه يوسف بن تاشفين دعـوة إلى ملوك الطوائف للمشاركة في الجهاد لتوحيد الجبهة الإسلامية، غير أن الاستجابة اقتصرت على بعض أمراء غرناطة ومالقة، مع اعتذار قوى أخرى، ورغم كفاية جيش المرابطين ميدانياً، فإن هدفه كان أوسع، إذ سعى إلى تحويل المعركة إلى مشروع جهادي جامع يمهد لتوحيد الأندلس تحت قيادة مركزيـة، وخلال التحضير لمعركة الزلاقة، أعاد تنظيم الجيش وفق توزيع استراتيجي، فجعل القوات الأندلسية في المقدمة لقربها من العدو، والمرابطين في المؤخرة كقوة إسناد.

تمركزت القوات في منطقة العمليات ضمن تنظيم لوجستي محكم، ومع محدودية مشاركة بعض ملوك الطوائف، وظف ابن تاشفين هذا الواقع لإدارة الحرب كمدخل لإعادة بناء الكيان الأندلسي في إطار مشروعه التوحيدي المرابطي"، مما يوحي بالحرص على إكساب أهل الأندلس المحاربين ثقة بأنفسهم في قتال النصارى واستنصارا بخلفيتهم من المرابطين يؤازرونهم، وإذا شعر الأندلسيون بأنهم عمدة المعركة أبلوا فيها البلاء الحسن وذاك من حسن التخطيط يحسب لابن تاشفين لأن حماسة أصحاب الأرض أكثر نفعا في مثل هذه الحروب ذات الجيوش المختلطة، وهي الأقدر على حسم المعارك وترجيح كفة حشود على أخرى، بعد استكمال الاستعدادات

خلال فترة التمركز ببطليوس، واصلت الجيوش الإسلامية زحفها نحو سهلٍ يقع شمالها قريباً من حدود البرتغال الحالية، ممتداً في اتجاه قروية، وهو الموضع الذي عُرف في المصادر العربية باسم الزلاقة، وسهل الزلاقة يعرف بالإسبانية ب Sagrajas"، حيث استكملت الجيوش النصرانية فيه تجهيزاتها واستعدت لجعله ساحة المعركة(20)

ثانياً ـ تحشيد الجيوش النصرانية بقيادة الفونسو السادس:

استعد ألفونسو لمعركة الزلاقة على عجل بعد استيلائه على طليطلة واطمئنانه إلى تفوق قشتالة، غير أن ظهور يوسف بن تاشفين قلب حساباته وأدخله في حالة استنفار غير منظّم، فاستدعى حلفاءه من ممالك الشمال الأوروبي والنصارى، مشكلاً تحالفاً واسعاً يعكس الطابع الصليبي المتنامي للصراع في الأندلس، وتقدم بجيشه نحو الجنوب واثقاً من عدده وعدته، لكنه دخل المعركة دون معلومات دقيقة عن قوة المرابطين وتخطيطهم، واستقر قرب ساحة الزلاقة في موضع مكشوف تضاريسياً، ليجد نفسه في مواجهة حرب خاطفة حسمت شروطها قبل أن تبدأ فعلياً(21)

ثالثاً ـ إدارة المعركة بين غدر ألفونسو وكمين يوسف بن تاشفين:

جاءت معركة الزلاقة بوصفها صداماً حاسماً اتسم بأسلوب الخديعة في الزمان والمكان، حيث سعى ألفونسو إلى مباغتة خصمه، فيما قابل ابن تاشفين ذلك بتخطيط مضاد قائم على الإحكام والمباغتة، ورغم التفوق العددي للنصارى(22) ، فإن حسن تنظيم الجيش الإسلامي وتوزيعه بين الأندلسيين والمرابطين منح المعركة توازناً استراتيجياً حاسماً، وقد اعتمد ابن تاشفين على خطة استدراج الخصم عبر تموضع القوات في المؤخرة، بما أتاح توجيه ضربة التفاف مؤثرة قلبت مجرى القتال، كما عزز المواجهة بحرب نفسية ورسائل حاسمة اختزلت خيارات الخصم، فمهدت لانهيار المبادرة النصرانية قبل بدء الاشتباك الفعلي، وهزم الفونسو في الحرب النفسية وبينت ردوده ضعف القيادة وقلة الخبرة بالسياسة الحربية فعمل على استغلال عنصر المفاجأة في توقيت الهجوم، ولم يكن اقتراح الإثنين يوماً خالياً من الخلفية الدينية لاية طائفة لينطلي على ابن عباد وابن تاشفين وأرسلت في ذلك العيون للتثبت، وما إن "جاءت طلائع المعتمد في الليل تنبئ أن معسكر النصارى في حركة وضوضاء وجلبة أسلحة مما يدل على استعداد القوم لبدء القتال، حتى لبث المسلمون على أهبة القتال حذرين متحفزين"(23) ، وهم يدركون أن الجمعة موعد المعركة الحاسم، تحولت المعركة بعد اضطراب المقدمة الأندلسية إلى صدام حاسم، فلما تراجع ألفونسو لإنقاذ معسكره اصطدم بالمؤخرة المرابطية، فانهارت صفوفه تحت ضربات عنيفة أوقعت

به خسائر جسيمة، وقد شكلت المؤخرة المرابطية عنصر المفاجأة الحاسم في خطة ابن تاشفين، إذ استُخدمت قوة احتياطية مدروسة لقلب موازين القتال في اللحظة الفاصلة، وفي الوقت نفسه واصل سير بن أبي بكر الضغط على مقدمة القشتاليين حتى استعاد الأندلسيون تماسكهم وتحول ميزان المواجهة لصالح المسلمين، وانتقل ابن تاشفين إلى قلب الميدان بعد إحراق المعسكر النصراني، حيث تولى

القيادة المباشرة للتحفيز والتثبيت حتى اشتد القتال وبلغ ذروته"(24)

وكانت هذه الطبول خدعة أخرى من خدع معارك المغاربة، فعلى إيقاعاتها تخاض أضرس الحروب، وبها تنزلق نتائج المعارك بسرعة نحو الحسم الاحتفالي، ففي ضجيجها ما يجعل الفرسان النصارى يفقدون التوازن والتركيز، أمام التنظيم القتالي المرابطي القائم على الصفوف المتراصة، فقد فرسان النصارى توازنهم وتعطل أسلوبهم التقليدي في الكر والفر، رغم تفوقهم العددي والعدة، ومع دخول "الجيش الأسود" إلى قلب المعركة بوصفه قوة الحسم، تعرض ألفونسو لإصابة جسدت نقطة التحول في سير القتال، فأدرك القائد القشتالي حجم الخطر، فبدأ انسحاباً متعجلاً نحو تل قريب، قبل أن يفر تحت جنح الظلام مع عدد محدود من فرسانه، وانتهت المعركة بانهيار التشكيل القشتالي وتشتت قواته، في حين أوقف يوسف بن تاشفين المطاردة مع حلول الليل بعد تحقق النصر الحاسم"، وبذلك تابع ملك قشتالة فراره مع فلوله ولم يتوقف إلا عند قورية، وتذكر عديد الروايات إن معظم أولائك الفرسان الفارين معه كانوا جرحى فمات معظمهم في الطريق ولم يصل منهم إلى طليطلة مع مليكهم سوى مائة"(25)

رابعاً ـ نتائج المعركة ـ النتائج العسكرية والسياسية ـ حروب الاسترداد المسيحية تصاب في مقتل:

تجلت نتائج معركة الزلاقة سياسياً وعسكرياً في انتصار دولة الإسلام وارتداد الخطر القشتالي، حيث عمت أخبار النصر الأندلس والمغرب وإفريقية، وارتفعت معها مظاهر الفرح والاحتفاء، وقد وثقت المصادر تبادل الرسائل بالنصر بين يوسف بن تاشفين ومراكز الحكم، بما عزز هيبة الدولة المرابطية في الداخل والخارج، وانعكس هذا الانتصار في تعزيز الوحدة الإسلامية وإحياء الروح الجهادية، حتى ارتبطت به دلالات رمزية كإطلاق ألقاب تعظيمية على القيادة"(26)

كما يمثل تحول لقب الحركة المرابطية دلالة على انتقالها من إمامة دفاعية إلى كيان دولتي مركزي، ما سرع إدماج الأندلس ضمن مشروع توحيدي للمجال المغاربي الإسلامي في مواجهة التوسع النصراني مع اضطلاعها بحماية الثغور

الغربية، وقد شكلت معركة الزلاقة نقطة تحول حاسمة أوقفت التمدد النصراني(27)، وأعادت التوازن إلى الأندلس، فاتحة مرحلة من الاستقرار والازدهار الحضاري امتدت آثارها لقرون ومهدت لسيطرة المرابطين ثم الموحدين، كما أسهمت في إعادة تشكيل المجتمع الأندلسي بفعل الهجرات والتداخل المغاربي وما نتج عنه من تفاعل حضاري.

حيث أدى هذا الامتزاج إلى تنشيط الحياة الدينية والحضارية في الأندلس رغم استمرار الصراع مع الممالك النصرانية، كما تجاوز أثر الزلاقة نطاقها المحلي ليؤثر في طبيعة الصراع بين العالم الإسلامي والغرب المسيحي في حين أسهمت النجدة المرابطية في ترسيخ جبهة دفاعية حافظت على استقرار المجال الإسلامي الغربي لأكثر من قرنين"(28) ، وتوحدت القوى الإسلامية بها فصارت أكثر إصرارا على توحيد بلاد المغرب والأندلس دولة إسلام قائمة على المبادئ الإنسانية وعلى الروح الاستيعابية في مفهوم الوحدة والتوحيد الذي سيؤسس له الفكر التومرتي من بعدهم ويجسده عبد المؤمن بن علي الكومي خلفا للمرابطين واستكمالا لدورهم الحضاري.

المبحث الثالث ـ المرابطون ونفوذهم في بلاد الأندلس:

أولاً ـ تمدد نفوذ المرابطين ـ عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس مرارا وتوحيدها تحت رايته ـ :

يعد قيام دولة المرابطين وتوسعها في الأندلس ظاهرة فريدة في تاريخ المغرب الإسلامي، فبعد أن ظل أهل الأندلس يؤكدون تفوقهم على أهل المغرب، ويتحكمون في مصيرهم دهرا طويلا، إذ ظلت جيوش الناصر والمستنصر وهشام المؤيد تجوب في أرجاء البلاد، ترفع لواء الأمويين وتبسط ظلهم، وتمكن للحضارة الأندلسية حتى قامت دولة المرابطين، "فقلبت الأوضاع وأصبحت الغلبة من نصيب أهل المغرب، وكتبت لهم السيادة على أهل الأندلس، وأصبحت شؤون تلك البلاد تصرفها مراكش حاضرة المرابطين"(29) ، ولعله التصريف الذي حول العبور المنجد في معركة الزلاقة انزلاقا لأحوال الأندلس نحو تصرف مغاربي وثيق في كل أحوال هذه البلاد وكأنها بلاد مفتوحة من جديد، لقد استطاعت دولة المرابطين أن تجمع بين المغرب والأندلس، فاجتمعت لديها المؤثرات الأندلسية والمغربية، وألفت بين التراثين، وعولت في ذلك على الرفع من شأن مذهب الإمام مالك وإعلاء كلمته في الأندلس، وعملت على إقامة مجتمعها الأمثل على أسس إحياء السنة في تثبيت أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاربة البدع، والتوسع في الجهاد بصورة لم تكن معهودة من قبل.

لقد تلقب يوسف بن تاشفين بأمير المسلمين في يوم الزلاقة، ولم يكن يدعى به من قبل، ثم "إن ملوك وأمراء الأندلس - وكانوا ثلاثة عشر ملكا- بايعوه وسلموا عليه باسم أمير المسلمين وهو أول من سمى به من ملوك المغرب"(30) ، ولم يكتف يوسف بفتاوي علماء المغرب في شأن الأندلس، بل "وصل به الأمر إلى استفتاء علماء المشرق، وعلى رأسهم الإمام الغزالي الذي جاءت فتواه مطابقة لفتوى علماء المغرب"(31) ، وبذلك حصل الإجماع على وجوب خلع ملوك الطوائف، فاتخذ كل ذلك ذريعة لبسط السلطان السياسي المباشر للدولة المرابطية على بلاد الأندلس، لقد أدرك ابن تاشفين أن إنجاز مشروع التوحيد بالأندلس، يستدعي إزاحة مجمل هؤلاء الملوك المبايعين له، فاستفتى الفقهاء من جديد في شأن أشهرهم المعتمد بن عباد، فأفتى بعضهم بارتداده لاستغاثته بالنصارى ضد المرابطين، وأباحوا دمه، وهي الفتوى التي أخذ يوسف بها، فقام بإلقاء القبض عليه، ونفيه إلى المغرب(32).

ورغم وصية الزعيم الأول المؤسس للمرابطين بالشورى، إذ لم يكن يرى طريقة الحكم الوراثي، فإن يوسف ابن تاشفين كان يخشى أن يعود الأمر فوضى بعده وخاصة بعد ضمه بلاد الأندلس بتاراتها وتناقضاتها وصراعاتها، فأراد أن يضع نظاما يكفل لها الوحدة مع المغرب، ويعصمها من الفرقة، ويحسم داء الخلاف الذي كان يهدد الدولة الناشئة بانقسام خطير، فأدخل نظام ولاية العهد، وأصبح تقليداً سارياً سار عليه خلفاؤه من بعده، والحدث هو في حد ذاته انحراف في اختيار الحاكم من المرابطين عن الشورى إلى النظام الوراثي، وتم ذلك بمجرد وطئهم لأرض الأندلس وتفكيرهم في الحفاظ عليها.

لكن هذا الحفاظ على الأندلس تابعة للمرابطين كان أكثر المسائل خشية لدى شباب أهل الأندلس قبل معركة الزلاقة فقد اعترض الرشيد على مسعى والده المعتمد ابن عباد الاستنجاد بالمرابطين وقال: "يا أبت أتدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا؟ فقال المعتمد لولده: "أي بني والله لا يسمع عني أني أبدا أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها إلى النصارى فتقوم اللعنة علي في الإسلام"(33) ، ولى يوسف بن تاشفين ابنه عليا الأندلس، واستخلفه على كامل دولة المرابطين بعدها، وبعد أن أتم الأمير يوسف البيعة لولده علي عاد إلى المغرب، حيث مرض مرضه الأخير الذي استمر عامين وشهرين، وانتهى بوفاته عن مائة عام حافلة بالجهاد والدعوة وإعزاز دين الله، وكانت سنة وفاته(500هـ/ 1106م)، وكان ولي العهد وقتها يقوم أثناء مرض أبيه بتصريف أمور الحكم نيابة عن أبيه، ونجح نجاحا كبيرا في إدارة دفة الحكم لدولة المرابطين، وكانت آخر وصية من يوسف لابنه في مستهل سنة(500هـ/1106م)، أن

أوصى ولده وولي عهده بعده أبا الحسن عليا بثلاث وصايا أولها": ألا يهيج أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة " والثانية: " أن يهادن بني هود بالأندلس وأن يتركهم حائلين بينه وبين الروم " والثالثة: " يقبل ممن أحسن من أهل قرطبة ويتجاوز عن مسيئهم"(34)

تم هذا التوحيد في عهد يوسف وتثبت بعده في عهد ابنه علي بشرعة الجهاد وشرعية الفقه المالكي وأمن يوسف بن تاشفين لخلفائه من بعده أرضية سياسية واجتماعية متماسكة وحدتها المذهبية مدخل الوحدة السياسية والاجتماعية، لولا ذاك النفوذ المتنامي للفقهاء المالكيين، فقد اكتسب كثير من الفقهاء أموالا طائلة بفضل تحالفهم مع النظام المرابطي(35) كما كان المرابطون يوزعون خمس الغنائم على الفقهاء والعلماء(36) ، واستغل فريق من الفقهاء ممن تقلدوا القضاء من ضعفاء النفوس نفوذهم لمآرب دنيوية فجمعوا الأموال من الحلال والحرام(37) ، وإذا ما لم يكن ممكنا تعميم هذا الحكم على جميع الفقهاء، فإن ذلك لا يمنع اشتهار بعضهم "ممن كان همه جمع المال ومتاع الدنيا، فسعى إلى ذلك عن طريق الوصول إلى المناصب الدينية من أمثال مناصب القضاء والفتيا والحسب"(38) ، والواقع أن المرابطين قد استشعروا جسامة تحمل مسؤوليّة بلاد الأندلس بتنوعها الاجتماعي وتقدمها الحضاري المشهود به، لذلك كانوا يجتهدون في حل مجمل القضايا الطارئة معتمدين في ذلك على القياس وخاصة بعد احتكاكهم مع حضارة الأندلس وما طرح في ذلك من قضايا جديدة لم تكن موجودة في المغرب، لكن لا يقضى بأمر إلا وفق رؤية المذهب المالكي، حيث كانت وظيفة القضاء وظيفة دينية لا يتقاضى من يتولاها أجراً(39)

فكان الأمير أو الخليفة الرئيس الأعلى للقضاء(40) ، وكان القاضي في عهد يوسف بن تاشفين يعين من كبار العلماء دون الاستناد إلى العصبية القبلية، كما كان أكثر القضاة من غير صنهاجة، وهي سياسة حكيمة اتبعها يوسف رغبة منه في تحقيق العدالة وتطبيق تعاليم الإسلام واسترضاء منه كذلك للتنوّع الثقافي والاجتماعي لدى أهل الأندلس، فلأهل الذمة في الأندلس قضاؤهم الخاص، فقد كان رجال الدين النصارى واليهود يتولون القضاء لهم، دون أن يتدخل فيهم قضاة المسلمين، وأجاز الفقهاء تقليد الذمي القضاء لأهل الذمة، وقد سرى العرف في الأندلس أن يخصص المسلمون لأهل الذمة قاضيا يعرف بقاضي النصارى أو قاضي العجم، ومرجع ذلك كله إلى أن النصارى كانوا يتمتعون بحرية الشعائر ويحتفظون ببعض القوانين القوطية ولهم أساقفتهم وقضاتهم.

لقد أشرف القضاة على شؤون عدة خطط منها تصريف بيت المال والأحباس وإدارة شؤون المساجد من إمامة وخطبة وبناء، ومن ذلك إشراف القاضي عبد الحق بن عطية على الزيادة في المسجد الجامع بالمرية عام(531هـ/1137م)(41) ، مما يجلي التقدير الكبير للقضاة والفقهاء من قبل السلطة المرابطية بشكل عام، وفي عهد علي بن يوسف بشكل أخص فقد بلغ به الأمر من شدة حرصه على مكانة القضاء، أنه اعتبر سلطة القاضي فوق سلطة الحاكم الإداري والعسكري، إذ جعله رقيبا على الولاة والعمال التابعين له، كما تدل على ذلك رسالة وجهها إلى قاضي مالقة أبي محمد عبد الله بن أحمد بن عمر القيسي المالقي (ت.542هـ/ 1147م)(42)

كما إن الوظائف الرسمية لم تكن محتكرة من قبل المؤيدين للسلطة والمتناغمين مع توجهها الفكري فقط، إذ لم يتول الوظائف الرسمية الهامة فقط من كان على علم بالفروع من المالكية، بل قد تولى القضاء والكتابة وخطة الأحكام وغيرها من الوظائف الرسمية عدد من أهل الكلام والأصول (أصول الفقه) والجدل والفلسفة والطب وأكثر من ذلك، فقد عين في منصب القضاء فقهاء من غير المالكية، وكانوا من المقربين من السلطة السياسية المرابطية، ولعل أفضل إنجاز حققته السلطة المرابطية في بلاد الاندلس ما تعلق منه بتنشيط الحركة التجارية فقد نجح الأمراء المرابطون في حماية الطرق وتأمين المسالك من أيدي العابثين بالأمن، فأمن التجار على أنفسهم وبضاعتهم، وأقبلوا على أسواق البلاد في ثقة، فكثرت الخيرات في دولتهم وعمرت البلاد، وهناك عامل آخر له نتائج بعيدة المدى في تشجيع حركة التجارة وهو أن الدولة ألغت المكوس بعد أن كان الأندلس يئن تحت وطأة ضرائب أمراء الطوائف التي أثقلوا بها الناس(43).

وقد دفعت كل هذه الإجراءات البلاد الأندلسية نحو العودة من جديد إلى حاضرة البلاد الإسلامية تشع بصناعتها وتروج بضاعتها وتنشر درر ثقافتها، كل ذلك بفضل مكاسب نصر معركة الزلاقة بمساندة المرابطين، ومما ساعد على نمو التجارة الخارجية في عصر المرابطين وازدهارها نمو الصناعة البحرية وقيامهم بإنشاء أسطول إسلامي ضخم، حتى أصبحت تنافس به جمهوريات إيطاليا والنورمان، واستطاع المرابطون بعد استيلائهم على موانئ شرق الأندلس، وجزر ميورقة ومنورقة أن يبسطوا حمايتهم على الحوض الغربي من البحر المتوسط، وقام أسطولهم في تأمين تجارة المغرب الذاهبة إلى الأندلس أو إلى الأسواق العالمية الأخرى، فازدهرت الحركة الملاحية(44)

ترتب على نشاط حركة الملاحة ازدهار ونمو كثير من الموانئ مثل: مرسية ودانية والمرية، كما عرفت كثير من المدن الداخلية نشاطا ملحوظا، واعتبرت المرية الميناء الأول في الأندلس الذي تقصده السفن من سائر أقطار البحر المتوسط، فأبحرت إليه المراكب من الإسكندرية والشام، مما جعلها أكثر المدن الأندلسية وفرة في المال(45) ، وبذلك استقرت الأحوال لمرابطي بداوة الصحراء المغربية أن يحكموا بلاد الحضر الاندلسي بالعدل الفاشي بناحيتها، ويتحكموا فيها بالعمل على حمايتها، ويحتكموا إليها بالعقل النابع منها والنابغ بينهم في بلادهم بعاصمة الدولة المدينة الفتية المختطفة من قبل ابن تاشفين نفسه: مراكش.

ثانياً ـ تشدد نفوذ المرابطين: أصولية الإصلاحات الدينية والإدارية في مواجهة تعقيدات التحضر الأندلسي

تجاوز الحضور المرابطي في بلاد الأندلس الحماية العسكرية وأداء وظيفة الجهاد في رد النصارى إلى بسط السيطرة السياسية وفرض الترتيبات الأمنية والإدارية بشكل صارم مما جعل من بلاد الأندلس ولاية تابعة للعاصمة مراكش وخاضعة لسلطان الدولة المرابطية تولي عليها العمال والولاة لتسيير دواليب شؤونها السياسية والاجتماعية، لقد استمرت حروب النصارى في مناوشة الدولة المرابطية القائمة بأمور الأندلس رغم هزيمة الزلاقة، فكانت وقعة قليش(501هـ/ 1107م)(46) ، والتي انتصر فيها المرابطون، ليهزموا في موقعة القلاعة سنة(523هـ/1128م)(47) ، واستعادوا المبادرة بانتصارهم في معركة فحص الكبار سنة(528هـ/1133م)(48) ، وبذلك لم تهدأ حياة الأندلس عن الحروب في شكل غزوات ورد حملات كانت جيوش المرابطين هي المتكفلة بها في حماية أمن بلاد الأندلس، وبقدر ما أعطت هذه الغزوات للوجود العسكري المرابطي شرعية فإن استعانة المرابطين بالأندلسيين كتابا في بلاطهم وعمالا في بلادهم ومشرفي دواوين في مراكش بالذات قد كشفت حاجة المرابطين إلى الأندلسيين للقيام بشؤون الدولة أكثر من حاجة الأندلسيين للمرابطين في حماية حدود البلاد، ومن هذا الشعور بالتفوق الأندلسي في الإدارة والمعرفة والثقافة والقلم بدأ التحضير للمنافسة والتمرد والثورة حسب مرحلية الصراع القائم بين سيف مرابطي صحراوي وقلم أندلسي نهري.

تنبه المرابطون إلى الدور الاجتماعي للعائلات الوجيهة ذات الإمارات المحلية وهو أكثر دور مؤثر في استتباب الأمن بالأندلس فسعوا إلى استقطابها وانتدبوا من بين أبنائها الكتبة والإداريين والعمال وحتى القادة المحليين، لكن هاته العائلات ذات النفوذ السابق قد تحولت هي في حد ذاتها عقبة أمام تمثيل العدل والاستقامة

والنزاهة، شعار المرابطين، لدى الجماعات المرابطية إذ "يستشف من نوازل ابن الحاج التجيبي وجود علاقة وطيدة بين بعض أصحاب النفوذ والنظام المرابطي الذي منحهم الجاه وحظوا برعايته، منها ما ورد في إحدى نوازله أن رجلا عاوض فدانا بكرم كان بحوزة مقدم القرية، وكانت للرجل أخت لها نصيب في الفدان، فلما علمت بذلك أرادت أن تطلب مقدم القرية بذلك فلم تجرأ عليه حتى زال من خطته"(49).

تمثل ملكية الأرض عقدة الأمن في بلاد فلاحية خصيبة كالأندلس، وسياسة التمليك لأية دولة هي أساس الاستمرار أو مدعاة ضياع الاستقرار، لذلك غير المرابطون ما اتبعه ملوك الطوائف من استحواذ على المساحات الزراعية الواسعة لصالح عائلاتهم، واتبعوا نظاما معينا يتعلق بإقطاع الأراضي إلى الجند ببلاد الأندلس، وهو نفس النظام الذي اتبعوه في البداية بأراضي المغرب، فكان نظامهم إقطاع تمليك، إذ شجعوا الناس على إحياء الأرض الموات حتى يمتلكوها إقطاعا، لذلك كان أبو محمد عبد الله بن مالك الطغنري الغرناطي مثلا صاحبا مستخلصا للأمير يوسف بن تاشفين بالأندلس يحدد لهم ما يقطع تمليكا أو إمتاعا حتى لا يختلط الأمر على المنتفعين بالإقطاع، وكان من ينتفع بالإقطاع الجند المرابطي والفقهاء.

لكن يبدو أن هذه السياسة الإقطاعية قد تسببت في تقلص مساحة أراضي الدولة في عهد الأمير علي بن يوسف فخلقت أزمة تجفيف موارد الخزينة، إذ لما حاد المرابطون عن نظام التخميس في الإقطاع، وتولوا بيع أراضي بيت المال في بعض الأحيان فقدت الدولة كثيرا من الأراضي والتي هي مواردها المتجددة، ولم تظهر آثار ذلك إلا في أواخر عهد الأمير علي بن يوسف، فحاول زيادة أراضي الدولة بوسائل مختلفة مع التزامه باحترام الملكية الخاصة(50) ، ففي العام(515هـ/ 1121م)، كثرت مصادرة أملاك الأمراء المرابطين المغضوب عليهم هم وحاشيتهم(51)، أو العمال الخائنين، وفي العام نفسه راجع الأمير علي بن يوسف الملكيات العامة التي أصبحت ملكيات خاصة منذ أيام بني عامر، وبني عباد وغيرهم لمعرفة مصدرها وقام الفقهاء بدعمهم له، فأفتى ابن رشد وابن الحاج بالتصرف بالملكيات الخاصة، ولكن خالفهم في ذلك ابن حمدين، مما تسبب ذلك بإثارة الفتنة بقرطبة (52)، كما قام علي بن يوسف سنة(521هـ/ 1127م)، بضم أحباس الكنائس التي كانت للنصارى المعاهدين الذين فروا إلى بلاد العدو، أو غربوا خارج الأندلس، وكانت أراضي واسعة لها أهميتها (53)

لكل تلك الإجراءات تقدمت الزراعة بالمنطقة خلال عصر المرابطين، وزاد الإنتاج الزراعي في الأندلس، وشهدت البلاد وفرة في المحصولات، وقد تضافرت عدة عوامل على ازدهار الزراعة منها؛ النواحي الطبيعية التي تمتعت بها المنطقة، لقد

تميزت البلاد الأندلسية باختلاف طبيعتها الجغرافية ما بين وديان وهضاب وسلاسل جبال، فضلا عن تنوع مناخها ومجاري أنهارها نحو الشرق والغرب، مما أثر بالتالي في توزيع ثرواتها الزراعية (54)، يضاف إلى ذلك تلك القوى البشرية التي اتخذت من فلاحة الأرض مهنة لها، كما كان لاهتمام ولاة الأمر بقيام زراعة ناجحة في البلاد دور في انتعاش الزراعة، لكنها ما فتئت تتحول إلى نفوذ العائلات الوجيهة شيئا فشيئا بأساليب تمليك مختلفة تثبت أن سلطة الوجهاء عليها أقوى من سلطة الدولة ففي زمن الفتنة التي حدثت في عهد المرابطين، وما تبع البلاد من اضطراب للأمن، كثر الاستغلال والتعدي على الأراضي ويظهر ذلك فيما يخض موضوع الغصب(55) ، وبيع المضغوط، ومسائل الرهن، وبيع الغبن(56) ، فيما لجأ بعض الناس إلى بيع بسعر زهيد وانتهز هذه الفرصة بعض الأشخاص واشتروا أملاك الكثيرين، بينما احتفظ البعض بأملاكه(57)

بكل تلك الأساليب عادت العائلات الوجيهة بالأندلس لتتصدر المشهد لا كأمراء طوائف تقتطع لها إماراتها وتؤسس دويلاتها، ولكن كجهاز إداري محلي نافذ لم تجد دولة المرابطين المنجدة للأندلس بدا من التعامل معه بالمهادنة حينا والمواجهة حينا آخر، إذ لم تنجح سياسة الاستقطاب في جعل أمثال ابن ملحان وابن همشك وابن مردنيش يختفون ويفقدون تأثيرهم، وسيمثلون أكثر القوى المواجهة للموحدين بالأندلس عنفا بمجرد سقوط الدولة المرابطية.

ثالثاً ــ تزعزع نفوذ المرابطين ــ تذمّر أهل الأندلس وظهور حركة الموحّدين وضعف المرابطين ــ :

استفادت العائلات الوجيهة وممثليها المحليين بالبلاد الأندلسية كثيرًا من الشعور السلبي العام لدى الأندلسيين تجاه المرابطين، وليس المحدد في ذلك الإحساس بالتفوق الحضري الأندلسي على البداوة الصحراوية للمغاربة، وإنما هو الإيمان بأن العدوة الشمالية لبلاد المغرب منفصلة كليا عن العدوة الجنوبية، وأنه لولا الحاجة إلى منع غلبة النصارى لما دعي مرابطي واحد إلى الأندلس "جنة الخلد في أرضكم" بعبارة ابن خفاجة جنان الأندلس وشاعر تلك المرحلة، هذا النفور الشعبي السائد وما قابله من تسلط مرابطي فيه شدة في الأحكام وشظف في العيش قد تلازما في مختلف فترات الحكم المرابطي، ورغم ما أبداه المرابطون من تجاوب مع الرفاه الأندلسي حتى صار الأمير عليا بن يوسف عازف عود يعقد مجالس الأنس بديوانه فإن نظرة الأندلسيين إلى المرابطين كغزاة لم تتغير وظلت أصداء كلمات ولد المعتمد بن عباد السر الموحد للوجدان الشعبي الأندلسي، وهو ما سيصعد تدريجيا حالات التوتر والتمرد حتى تمسي

فتنة في مدينة قرطبة قادها المتصوفة العلماء لتتصدى معها فتنة في بلاد المصامدة قادها الزهاد الفقراء فتتوجها بذلك ثورة من فقهاء السلطة أنفسهم، وقد أدركوا انتهاء دور هذه الدولة وابتداء مرحلة حليف أقوى قد يكون الأقدر على استيعاب التنوع الثقافي والاجتماعي لبلاد الأندلس والأجدر بحمايتها بأسلوب قتالي جديد لا يدفع بالحشود إلى المواجهة وإنما يوجهها إلى البناء والتعمير والنماء والتثمير.

بدأ حكم علي بن يوسف بن تاشفين بإخماد ثورة أندلسية هي ثورة ابن الحجاج بقرطبة(499هـ/1105م)، المدينة التي تولاها بنفسه، واكتوى بنار ثورتين داخل بلاطه منذ توليه المهمة، ثورة ولده أبي بكر علي بن يوسف والي أبيه ووالياه على غرناطة(500هـ /1106م)، وثورة الأمير يحيى بن أبي بكر والي أبيه على فاس(500هـ/1106م)، واستمر يواجه ثورات مدن أهل الأندلس خصوصا بين سنوات (500-524ه/1106-1139م)، وأهمها: شغب أهالي غرناطة وأشبيلية (507ه/1113م)، وثورة أهالي قرطبة(513-514ه/1119-1120م)، وثورة العامة في قرطبة على اليهود (529هـ/1134م)، وثورة العامة في قرطبة ضد القاضي ابن العربي (529ه/1134م)، وثورة العامة في قرطبة ضد القاضي ابن رشد(534ه/1139م)(58) ، وهو ما جعل الأندلس "مرجلا يغلي بالحقد والكراهية للمرابطين الذين قدموا إليها من أجل حماية الأوطان وصون الأعراض"(59) ، وإذا ما اختلفت تفسيرات المؤرخين لدواعي نشوب هذه الثورات وبروز أحداث الشعب بين مدن تمثل تاج الحضارة الإسلامية فإن الثابت في كل الأحوال هو تحوّل المرابطين إلى غرباء مغتصبين ظلمة جورة في الوجدان الجمعي الأندلسي، لذلك شملت الثورات ضدهم مختلف الطبقات من عامة وخاصة وتحركت فيها مجمل القطاعات المنقطعة للعبادة كالمتصوفة والمنقطعة للعمل كالفلاحين والمنقطعة للإدارة والحكم كالقضاة والفقهاء.

لقد أخذ تيار التصوف يستقطب عامة الناس في الأندلس وعرف انتشاراً واسعاً بين الطبقات الاجتماعية المختلفة وتشكلت حول تجارب الأعلام من رواده، كابن سبعين، الطرق الصوفية، وسرعان من انتظمت الحركة الصوفية بالأندلس في شكل رابطات ثقافية للشيوخ والمريدين وصارت بذلك تمثل قوة اجتماعية صاعدة من رحم المعاناة الأندلسية تتكلم بهمومها اليومية وتصدع بالحق في وجه الولاة والقضاة الظلمة، ولقد بلغ تأثيرها في النفوس أن صار ولي الأمر أمير المؤمنين علي بن يوسف بن تاشفين لها خاضعا وعلى بركة بعض شيوخها معولا، ذاك أن المرابطين أنفسهم نحوا منحى تصوفي، فيوسف كان متقشفا في مأكله ومشربه، زاهداً في الدنيا، لباسه الصوف لم

يلبس قط غيره(60) ، وكان ابنه من الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد من الملوك والمتغلبين(61) ، بل إنه كتب كتاباً لاحد المتصوفة يلتمس منه الدعاء(62)

في أواخر العصر المرابطي برز تصاعد داخلي معقد قادته النخب الأندلسية من قضاة وفقهاء ووجهاء أســـر عريقة، استثمرت اختلال التوازن السياسي وتراجع قبضة السلطة المركزية لتحويل نفوذها الاجتماعي والديني والاقتصادي إلى أداة لإعادة تشكيل الحكم، وقد تعزز هذا الدور مع اتساع الملكيات العقارية وتراكم الثروة، بما عمّق حضور هذه الفئة في المجال المحلي وأكسبها قدرة متزايدة على توجيه مسار الأحداث، ومع تفجر الثورات في المدن تحولت هذه النخب إلى مراكز قيادة فعلية أعادت توجيه الاحتجاجات الشعبية الناتجة عن الأعباء الجبائية الثقيلة، من مجرد رفض اجتماعي إلى حراك سياسي يستهدف إنهاء الهيمنة المرابطية واستبدالها بسلطة أندلسية محلية، غير أن هذا المسار أدى إلى تفكك البنية السياسية وتنازع السيطرة على الأرض والنفوذ، ما فتح المجال لإعادة توزيع واسعة للملكيات في سياق اضطراب شامل.

وفي خضم هذا الانهيار التدريجي تقدمت القوة الموحدية بوصفها مشروعاً سياسياً منظماً قائماً على الدعوة والتنظيم العسكري، مستفيدة من شبكات التأييد الممتدة منذ مرحلة التأسيس، لتنجح في بسط سيطرتها على المجال الأندلسي وإزاحة مراكز النفوذ المحلي، بما أسس لمرحلة جديدة من التمركز السياسي في الغرب الإسلامي"(63) ، تشي هذه السردية الموحدية بخمسة أسباب (حبال) توثق الارتباط الجغرافي للثورة الموحدية بثورة أهل الأندلس ، ويمكن اكتشافها في المكونات الرمزية المؤسسة للحكاية من رغيف وقارب ومجداف ونهر وسباحة، يحيل الرغيف على مرحلة الصلاح والرغبة في الإصلاح عبر الزهد في الدنيا كما انتشرت مفاتنها ببلاد المغرب، وطلب الآخرة كما توفرت معاهدها ومعابدها ببلاد الأندلس، فالرحلة صوبها من الإيمان في جغرافيا التشوف الروحي لملاقاة العلماء العارفين والزهاد العابدين، وقد انتشرت مراكزهم بمدن الأندلس وثغورها، وذاك هو المدخل الثقافي الذي بدأت به الدعوة الموحدية والحركة الصوفية ببلاد الأندلس: الزهد في الدنيا وطلب الحق ويحدد القارب جغرافيا الارتباط عبر البحر انتقالا من جنوب المتوسط إلى شماله، وتكون فيه الأندلس جنة أحلام الشباب الطامحين في تغيير أوضاعهم وما أشبه الأحوال، لكن السياق مختلف فالرغيف متوفر ببلاد المغرب، وغذاء الروح والعقل منعدم، وتلك هي المغامرة السياسية التي أقدم عليها ابن تومرت واحدث بها ما أحدث مستمداً التجربة مما عاصره في إدارة شؤون الدولة لدى ملوك الطوائف بالأندلس، ومستفيدا من

أخطاء المرابطين في إخضاع هؤلاء الطوائف جماعات حضرية لسلطان دولة بدوية صحراوية.

أما المجداف فيكسي الارتباط نوعا من روح المثابرة وبذل الجهد، فيحيل على الجغرافيا الثقافية للمبادلات المتواصلة بين الأندلس وبلاد المغرب، إذ لا يتوقف الزمان عن التجديف والتوليف بين مختلف التجارب السياسية فكلما صعدت قوة بإحدى العدوتين رامت توسيع نفوذها وبسط سلطانها بالعدوة الأخرى امتدادا أو استنجادا بحكم الارتباط التاريخي بين الضفتين، ويظهر النهر أقصر من البحر وأضيق ليحيل على جغرافيا المكان عند مضيق جبل طارق، مضيق الصراعات الدولية، فمن قطعته وملكته ومنعته من الدول استحالت امبراطورية متحكمة في حوض المتوسط، وما تسميته بجبل طارق إلا إحالة على فتح الأندلس ضمن مشروع استكمال إمبراطورية الهلال الإسلامي بجهود أهل المغرب، فأصالة الأندلس مغربية بالضرورة، ومنارة المغرب أندلسية بالطبيعة.

ولا يمكن أن يتم ذلك دون ارتباط فعلي بين المغرب والأندلس تجسده السباحة البدنية من شاب عسكري قوي كعبد المؤمن بن علي، ذاك الذي أمسى القائد الأوحد للدولة، وانتقلت الدعوة الموحدية من مسار روحي فكري إلى مشروع سياسي إمبراطوري فرضته تحولات الواقع وصراعات القوة في المغرب والأندلس، ومع صعود عبد المؤمن بن علي تحولت إلى دولة فاعلة استجابت لنداءات الأندلس في ظل ضعف المرابطين وتزايد الضغط النصراني، فبدأ التدخل العسكري عبر الضفة المقابلة واستعيدت وظيفة حماية المجال الإسلامي الغربي، كما تجددت صلات البيعة والارتباط بين الأندلس والمغرب بما عكس وحدة سياسية جديدة قوامها مركزية الموحدين في إدارة المجال المتوسطي"، وأسهمت الثورة الموحدية في بلاد المغرب في إضعاف البنية العسكرية والسياسية للمرابطين، بما قلص قدرتهم على احتواء اضطرابات الأندلس وضبط توازناتها الداخلية، فلم تعد الأخيرة كياناً مستقلاً مكتفياً بذاته بقدر ما أصبحت في طريقها إلى الانتقال نحو وصاية قوة مغاربية صاعدة، وفي هذا السياق يمكن استحضار التصور الخلدوني لدورة العمران السياسي، حيث تتدرج الدولة من القوة إلى الضعف وفق قانون داخلي حتمي قوامه التحول من البداوة والخشونة إلى الترف والرخاء، ثم الانحدار نحو الوهن والتفكك(64).

فالدولة المرابطية التي انطلقت من بيئة صحراوية يغلب عليها التقشف وشدة البأس، سرعان ما استفادت من انتصار الزلاقة في توسيع نفوذها داخل الأندلس، فانتقلت إلى إدارة مدن غنية واسعة الموارد، الأمر الذي أدى إلى تراكم الثروة واتساع مظاهر

الترف وتغير أنماط العيش، ومع هذا التحول تراجع منسوب الصلابة العسكرية، وظهرت بوادر الترف المؤدي إلى ضعف العصبية، فبدأت مراكز القوى الداخلية في التنازع، وبرزت نزعات الاستبداد والانقسام داخل بنية الحكم، بما عمق هشاشة الدولة وفتح المجال أمام إعادة تشكل السلطة في صيغ جديدة، ومع اتساع رقعة الدولة وابتعادها عن منبع نشأتها الأول في الصحراء، تسلل الضعف تدريجياً إلى أوصالها، فتعددت الثورات وتفككت الروابط الجامعة بين المغرب والأندلس، إلى أن انتهى الأمر بتراجع قدرتها على الحفاظ على تماسك المجال السياسي الموحد، وفي هذا السياق برزت الدعوة الموحدية كقوة بديلة أعادت صياغة المشروع السياسي في الغرب الإسلامي، متجهة نحو توحيد المغرب والأندلس ضمن تصور جديد للسلطة في تحول جسده عبد المؤمن بن علي الذي سعى إلى ترسيخ مرحلة سياسية جديدة تنهي الامتداد المرابطي وتؤسس لبنية حكم مختلفة في قلب المجال المتوسطي الغربي"(65)

هذا المسار والمصير قد عرفته الدولة المرابطية بالأندلس وفاصل الصعود والنزول فيها إنما كان معركة الزلاقة، إذ بقدر ما فكوا الحصار على أهل الأندلس وسعوا المجال لسلطانهم، لكن كلما ترامت أطراف الدولة بعيدة عن موطن نشأة الدعوة في الصحراء بدأ التفكك يسري إليها وأمسى الضعف يدب في أوصال كيانها، وإنما تكالبت الثورات على تقاسم إرثها بين المغرب والأندلس وتحالفت في ذلك لتقود هذه الدولة إلى انتهاء عمرها السياسي بانتفاء دورها الإقليمي، إذ لم تعد قادرة على تمتين الرابطة بين المشرق والمغرب، وقد آن أوان توحيد بلاد المغرب بأندلسها والانفصال بها عن المشرق كليا في خلافة مختلفة عن العباسيين وتلك مهمة ندب عبد المؤمن بن علي نفسه لها وجعل سنة الأخماس(555هـ/1159م)، محققة لها متوجهة لمرحلته بتشييد رباط الفتح عند مضيق المجاز في بلاد الأندلس معيرا اسمه إلى "جبل الفتح".

الخاتمة:

الهيمنة على ضفتي المتوسط: موقع معركة الزلاقة بين مجمل الحروب الصليبية خلال القرنين الهجريين الخامس والسادس في المشرق والمغرب، تعد معركة الزلاقة لحظة تاريخية فاصلة في صراع الأمم النصرانية والإسلامية، وقد كانت إيذانا بمرحلة تاريخية جديدة مليئة بالصراعات الدولية وحبلى بالتحولات المجتمعية في العالمين الإسلامي والمسيحي، ولعلها مفتاح انتهاء مرحلة العصر الوسيط وابتداء مرحلة العصر الحديث، وإنما كانت الأندلس فضاءها لما سيكون لها من دور في انتقال الخبرات والمعارف إلى البلاد الأوروبية لتبدأ نهضة أهل الغرب بالتخلص من تأثير المسيحية بعد استنزاف شعوبهم في حروب دينية عادت منها منهزمة وتركت بها بلاد

المسلمين ضعيفة مختلة، لقد كانت معركة الزلاقة أساس التحول في الجغرافيا السياسية الدولية حول حوض المتوسط، تضيق بساكنتها فيبحثون عن عوالم بعيدة ما وراء المحيط الاطلسي، ليبدأ عصر إنساني جديد قوامه حرية حركة الرأسمال التجاري.

لقد أنهت معركة الزلاقة في بلاد المغرب التشتت السياسي والتفكك الاجتماعي وأنشأت مجتمع الرابطات في عمق الصحاري وقنن الجبال الداخلية كما تبرز ذلك تجارب المرابطين والموحدين، لكنها وطدت دور المدن الساحلية في تثمير الرأسمال التجاري عبر طرقات الملاحة البحرية، ورغم استغلالها لموارد التجارة الصحراوية القادمة من عمق إفريقيا فإن الانتقال التدريجي لعواصم الدول نحو السواحل خصوصا مع الدولة المتناسلة عنها(بنو الأحمر، بنو مرين، عبد الوادي، بنو حفص)، قد انزلق بالسلطة المركزية نحو عالم البحار وصارت حضارة العرب المسلمين في بلاد المغرب أكثر تعويلا على الطرقات التجارية للملاحة في العالم تحكم سيطرتها عليها.

لقد فقد النصارى بمعركة الزلاقة واستتباعاها حلمهم في استبدال السيطرة وانهت الحروب الصليبية بانتكاسة حملاتها البحرية في مرسى مدينة تونس ليبحثوا عندها عن منفذ جديد إلى عالم جديد يخرجهم من كابوس نتائج معركة الزلاقة، فكانت الاكتشافات الكبرى المغيرة لوجه العالم والمنهية للعصر الحديث، لكن في نفس الوقت كان الفقد التدريجي لبلاد الأندلس، حتى تقلص نفوذ المسلمين في حدود العدوة الجنوبية للمتوسط بسقوط غرناطة آخر المعاقل الباقية لبني الأحمر.

لئن توج يوسف بن تاشفين مسيرة دولته المرابطية بانتصار تاريخي في معركة الزلاقة أثبت جدارة هذه الحركة بالحكم وأحقيتها بالإمارة وسعى إلى بسط النفوذ داخل الأندلس دون أن يتقدم إلى تحرير طليطلة لتستمر رأس حربة في وجه نفوذه يبقي بني هود بينه وبينها، ومن عدم استرداد هذا الثغر تسرب الخلل من جديد فصعب على المرابطين استثمار الانتصار بتوسيع مجال النفوذ إلى بلاد النصارى، وما إن توقف الفتح فأمسى رباط جهاد يرد حتى تزعزع النفوذ بتفكك داخلي وثورات وتوترات أنهت وجود الدولة كليا بالأندلس قبل أن يسقطها الموحدون بمراكش وعادت الأندلس مستباحة من جيوش النصارى وإماراتهم.

بيان تضارب المصالـــح:

يُقر المؤلف بعدم وجود أي تضارب مالي أو علاقات شخصية معروفة قد تؤثر على العمل المذكور في هذه الورقة

الهوامـــــــــــش :

1- عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس: 1997، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، ج2، ص3.
2- أبو عبد الله محمد الحميري، صفة الأندلس منتخبة من الرّوض المعار، ط1، دار الجيل بيروت لبنان [د ت]، ص4.
3-عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مرجع سابق، ص16.
4-المرّاكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص اخبار العرب، ط 1، مطبعة الاستقامة، القاهرة، رتح محمد سعيد العربان، محمد العربي العلمي، 1368هـ/ 1949م، ص43.
5-عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مرجع سابق الذكر، ط4، ج2، ص4.
6-عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن اسرهم من دوي الشأن الأكبر، تج سهيل ، دار الفكر للنشر والطباعة، 1421هـ/ 2001م، ج7، ص960.
7-عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مرجع سابق، ص13.
8-ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ط1، دار صادر، بيروت [د.ت]، ص144.
9-المرّاكشي، المعجب، مصدر سابق، ص51.
10-عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مرجع سابق، ص، ص100، 101.
11-المراكشي، المعجب، مصدر سابق، ص56.
12-عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مرجع سابق الذكر، ص45.
13-هشام الباقلي، الأندلس عصري الطّوائف والمرابطين من خلال نوزل ابن الحاج التجيبي، مجلة الخلدونية، عدد11، سنة1، المغرب 2019، ص186.
14-عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مرجع سابق، ص 14.
15-ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص282.
16-عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مرجع سابق، ص ص 48- 103.
17-عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مرجع سابق، ص ص 305- 318.
18-المرّاكشي، المعجب، مصدر سابق، ص 93.
19-حامد، محمد خليفة، انتصارات يوسف بن تأشفين، ط1 مكتبة الصحابة، الامارات الشارقة 1425هـ/ 2006م، ص ص 131، 132.
20-عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مرجع سابق، ص 321.
21-حامد، محمد خليفة، انتصارات يوسف بن تأشفين، مرجع سابق، ص 138.
22-حاول ألفونسو خديعة المسلمين في تحديد يوم الموقعة فكتب إلى المعتمد بن عباد، يوم الخميس، يقول له إن غدا يوم الجمعة وهو عيدكم، وبعده السبت يوم اليهود، وهم كثير في محلّتنا، وبعده الأحد وهو عيدنا فيكون اللقاء بيننا يوم الإثنين"؛ عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مرجع سابق، ص323.
23-مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، (تح: سهيل الزكار؛ عبد القادر زمامه)، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1973، ص39؛ ابن ابي زرع الانيس المطرب بروض القرطاس أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاسن دار المنصور لطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص97.
24-ينوّه الاستاذ بيدال بتأثير وقع الطبول وضجيجها في اضطراب القشتاليين ويقول إنّه لم يسبق من قبل أن عرفت الجيوش الإسبانيّة مثل هذا الضجيج الّذي تهتز له الأرض"، عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مرجع سابق، ص ص 324، 325.
25-ابن ابي زرع، الانيس المطرب، مصدر سابق، ص ص 146- 151؛ عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مرجع سابق، ص 326.

26-عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مرجع سابق، ص 328.
27-روض القرطاس، مصدر سابق، ص ص 148، 149؛ عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مرجع سابق، ص 328.
28-حامد، محمد خليفة، انتصارات يوسف بن تأشفين، مرجع سابق، ص 155.
29-حسن، احمد محمود، قيام الدولة المرابطيّن، ط1، دار الفكر العرب، مدينة نصر، 1416هـ/ 1996م، ص ص327 ،329.
30-ابن ابي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص149.
31- عصمت، عبد اللطيف دش، دور المرابطين في نشر الإسلام غرب إفريقيا، ط1، بيروت دار الغرب الإسلامي، 1988، ص198.
32- محمد، محمود عبدالله بن بيّه، الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين، ط1، بيروت، لبنان، 2000، ص132.
33- عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مرجع سابق، ص78.
34- حامد، محمد خليفة، انتصارات يوسف بن تأشفين، مرجع سابق، ص 262.
35- ابن ابي زرع، الأنيس المطرب الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص ص 137، 156.
36- عصام الدين الفقي، تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، د. ت، ص252.
37- مصطفى بن يحيى، نفوذ فقهاء المالكيّة في العهد المرابطي، مجلة مدارات تاريخيّة، ج2، 2020، عدد4.
38- الصادق مزهود، تاريخ القضاء في الجزائر من العهد البربري إلى حرب التحرير الوطني، ط. 2،دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، 2012، ص117.
39- أحمد الطوخي، مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة،1997، ص ص192، 194.
40- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط. 1، دار الجيل، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1996ج.2، ص 242.
41- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر ،1984، ص149.
42-كان هذا القاضي من أهل العلم والمعرفة والفهم، تولى القضاء ببلده ثمانية عشر عاما صمد فيها واستعفى من القضاء لكبر سنه، وانقطع للعبادة. ينظر، ابن بشكوال، كتاب الصلة، ط1، المكتبة الثقافيّة الدينيّة، القاهرة2008، ج. 1، ص316.
43-ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص167.
44- حسن محمود، قيام دولة المرابطي، مرجع سابق، ص401، نداء بهلول، جوانب الرشد في حكم المرابطين في المغرب والأندلس541-448هـ/1146-1056م، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة،2014، ص135.
45-ابن عبد الله حمد بن محمد بن عبد الله ادريسي الادريسي، نزهة المشتاق في سنة 11، اختراق الافاق، مج1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ/ 2002م، ص 563.
46- ابن ابي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص160، السّلاوي، الاستقص الدول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر ومحمد الناصر، ط1، دار الكتاب الدار البيشاء1997، ج1، ص124.
47-ابن القطّان نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود مكي، ط. 1،دار الغرب الإسلامي، 1990. ص154.
48- ابن القطّان، نظم الجمان، نفس المصدر، ص241؛ المراكشي، المعجب، مصدر سابق، ص91.

49- هشام الباقلي، الأندلس عصري الطّوائف والمرابطين من خلال نوزل ابن الحاج التجيبي، مرجع سابق، ص179.
50- الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ط1، دار الكتب العلمية بيروت،1981 ج.8، ص57.
51- ابن عبد الله محمد بن عبد الله بن ابي بكر ابن الآبار، الحلة السيراء، ج2، ط2، دار المعارف، 1985م، ص89.
52- احمد بن يحي الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي اهل افريقية والاندلس والمغرب، دار العرب الإسلامي، 19990م، ج 9، ص 613.
53- الونشريسي، المعيار المعرب، نفس المصدر، ج. 8، ص 57.
54- علي حسن حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ط 1، القاهرة، مكتبة الخانجي الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ط1، القاهرة، مكتبة الخانجي 1980، ص232.
55- الونشريسي، المعيار المعرب، مصدر سابق، ج9، ص 548.
56- الونشريسي، المعيار المعرب، مصدر نفس، ج6، ص ص 40- 467.
57 - عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عناصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تج سهيل زكار، دار الفكر للنشر والطباعة، 1421هـ/ 2001م، ص ص 494- 496.
58- ينظر سلامة محمد سليمان الهدفي، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، ط1، دار الندوة الجديدة، بيروت1985، ص ص71-131.
59- نفس المرجع، ص88.
60- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص136.
61- عبد الواحد المرّاكشي، المعجب، مصدر سابق الذكر، ص235.
62- مجهول، مفاخر البربر، تج، عبد القادر بوباية، دار أبى رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2005م، ص171.
63- نص الحكاية" كان عبور عبد المؤمن –رحمه الله –ونزوله بجبل الفتح سنة538 ثم كر راجعاً، كما ذكرنا، إلى مراكش أخبرني غير واحد ممن أرضى نقله أنّه لمّا نزل مدينة سلا- وهي مدينة على البحر الأعظم المحيط ينصبّ إليها نهر عظيم يصبّ في البحر- عبر النهر وضربت له خيمة على الشّاطئ ، وجعلت العساكر تعبر قبيلة بعد قبيلة فلمّا نظر على كثرة العدد وانتشار العالم خرّ ساجدا ثمّ رفع رأسه وقد بلّ الدّمع لحيته والتفت إلى من عنده وقال :" أعرف ثلاثة أشخاص وردوا هذه المدينة لا شيء لهم إلّا رغيف واحد فراموا عبور النّهر وأتوا صاحب القارب وبذلوا له الرّغيف على أن يعبروا ثلاثتهم فقال لا آخذه إلّا على اثنين خاصّة فقال لهم أحدهم وكان شابّا جلدا: "خذا ثيابي معكما وأعبر أنا سباحة" فأخذا ثيابه معهما ، وصعدا في القارب فجعل الشّاب يسبح، فكلّما أعيى دنا من القارب ووضع يديه ليستريح، فيضربه صاحبه بالمجداف التي معه حتّى يؤلمه، فما بلغ البرّ إلّا بعد جهد جهيد"، فما شكّ السّامعون للحكاية أنّه العابر سباحة وأنّ الإثنين المذكورين هما ابن تومرت وعبد الواحد المشرقـــي"(عبد الواحد المراكشي، المعجب، مصدر سابق، ص ص226-227.)
64- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص ص188، 350.
65- عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر ج7، ص ص 960، 961.